مقدمة

(١) النقل عن الغرب وسيلة محمد على للإصلاح

مجيء محمد على إلى مصر ، اللقاء الأول مع الجيوش الأوربية وأثره ، الموقف بعد خروج الفرنسيين ، المصريون يختارون محمد على والياً عليهم ، خطته للإصلاح وسط بين الاستشراق والاستغراب ، وسائل الإصلاح : استخدامه الأجانب ، عيوب هذه الوسيلة ؛ الاستغناء عن الأجانب وإحلال المصريين محلهم ، إرسال البعثات إلى أوربا ، إنشاء المدارس

وفد محمد على على مصر ضابطاً صغيراً من ضباط الحملة التركية الانجليزية التى أتت فى مارس سنة ١٨٠١ لإخراج الفرنسيين من مصر ، واشترك محمد على فى معارك كثيرة مع جيوش دول ثلاث : إحداها دولة شرقية متحطمة تسير نحو الفناء ، فجيوشها خليط من شعوب كثيرة متنافرة يعوزها التآلف والانسجام والنظم الحديثة وحسن القيـــادة ، والثانية والثالثة دولتان غربيتان ناهضتان تنافس كل منهما الأخرى فى سبيل الاستيلاء على هذه الكنانة لما تتمتع به من ميزات جمة ، ولأنها مفتاح الشرق ، مطمح أنظارهما ، ولموقعها الجغرافى الممتاز ، وجيوش هاتين الدولتين تمتاز بنظم حديثة ، وأسلحة جديدة وخطط محكمة ، وقيادة قديرة ، فكان لهذا اللقاء الأول أثر جد قوى فى نفس محمد على وتفكيره .

فلما جلا الفرنسيون عن مصر ، واستقر محمد على فيها ضابطاً من ضباط الفرقة الألبانية ، ظل يرقب عن كثب الصراع الذى قام من جديد بين القوى الثلاث : المماليك والأتراك والانجليز ، وقدر محمد على كل قوة قدرها ، وأيقن أن كل واحدة منها تناضل الأخرى فى سبيل أن تفوز هى وتغنم دون أن تعير هذا البلد وهذا الشعب اهتماماً ، ورأى بثاقب نظره أن هناك — وراء الستار — قوة ظلت كامنة قرابة ثلاثة قرون ، وقد أيقظتها هذه الحملة الفرنسية ، وأن المستقبل لهذه القوة إذا وجدت من يأخذ بيدها . ويقودها إلى الخير .

وانتهت هذه المعركة الثلاثية بخروج الانجليز من مصر أولا ، ثم بضعف المماليك والأتراك ثانياً ، وهنا ظهر محمد على فى صف الشعب ، ولحظ الناس — خاصتهم وعامتهم — مواهب هذا الرجل الممتازة ، فرأوا فى رجل الحرب الزعيم المفطور على الخير ، ولما اشتد الأمر بينهم وبين الباشا العثمانى قالوا له إنا لانريد هذا الباشا حاكما علينا ، ولابد من عزله من الولاية ، فقال ومن تريدونه يكون والياً ؟ ، قالوا له: لانرضى إلا بك ، وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ، فامتنع أولا ، ثم رضى؛

وأحضروا له «كركا» وعليه قفطان، وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى فألبساه له، وذلك وقت العصر، ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة»[١].

وانتهى النزاع أخيراً، واضطر السلطان اضطرارا أن يقر محمد على والياً على مصر، ومنذ ذلك الحين بدأ هذا الرجل العظيم يظهر الجوأولا، ثم أخذ يضع الخطط لإصلاحاته المختلفة، التى تعتبر — إلى حد ما — استمراراً لما بدأه الفرنسيون فى مصر، والتى التزم فيها سبيلا وسطا، فلم يلجأ إلى القديم ويتعصب له، لأنه آمن منذ اللقاء الأول بأن الإصلاح إنما يكون بالنقل عن الغرب، ولكنه فى نفس الوقت لم يأخذ عن الغرب كل شىء، ولم يعتمد عليه كل الاعتماد، بل «اتخذ بين المستشرقين والمستغربين خطة وسطا، يدلك على ذلك أن «ماكولى» استشهد بما عمله محمد على فى مصر لتأييد ماذهب إليه من ضرورة تعليم العلوم الحديثة، كما أن خصوم «ماكولى» من أنصار الثقافة الشرقية استشهدوا أيضاً بمحمد على لتأييد ماذهبوا إليه من ضرورة وصل حاضر الأمة بغابرها، فقالوا — وكان حقاً قولهم — إن مصلح مصر يعلم العلوم الحديثة، ولكنه يعلمها باللغة العربية ...»[٢]

تولى محمد على عرش مصر والعلم فيها قد انزوى فى أروقة الأزهر، وصحون بعض المساجد، وقاعات المكاتب فى المراكز والقرى؛ وكان لعلماء الأزهر — كما يقول رفاعة — «اليد البيضاء فى اتقان الأحكام الشرعية، العملية والاعتقادية، ومايجب من العلوم الآلية كعلوم العربية الاثنى عشر، وكالمنطق، والوضع، وآداب البحث، والمقولات، وعلم الأصول المعتبر ...»[٣]، وكان الأزهر كما يقول: «جنة علم دانية الثمار، وروضة فهم يانعة الأزهار»[٤]، وإن كان أستاذه الشيخ العطار قد فقد ثقته بهذه العلوم، مذ هجرته علوم الفرنسيين، وراح يطالب غيرها لنفسه، ويقرأ التلاميذه كتباً غير كتب الأزهر، وعلوماً غير علوم الأزهر، وكان يقول: «إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من المعارف ماليس فيها»[٥]

وآمن محمد على بهذا الرأى، وبدأ يعد العدة لانشاء المدارس الجديدة، ولكنه تخير تلاميذها ومعلميها من المعهد القديم — الأزهر —، واحتفظ لمدارسه الجديدة بالطابع الإسلامى الشرقى، فكان فى نظر أهل

---

(١) ص «س» من مقدمة الأستاذ شفيق غربال لكتاب تاريخ التعليم فى عصر محمد على للدكتور احمد عزت عبد الكريم؛ والجبرتى، ج ٣، ص ٣٥٠.

(٢) شفيق غربال، محمد على الكبير، ص ٩٦.

(٣) رفاعة، مناهج الألباب، ص ٣٧٢.

(٤) رفاعة، تخليص الابريز، ص ٣.

(٥) على مبارك، الخطط التوفيقية، ج ٤، ص ٣٨.

عصره من المصريين « مجدداً لدروس العلم بعد اندراسها ، آتياً فى ذلك بما لم تستطعه الأوائل »[١] ، كما كان يلقبه الأوروبيون « بمعيد تمدن الإسلام ، ومبيد تمكن الأوهام »[٢] .

بدأ محمد على فى مصر عهداً جديداً ، فقد كانت العلاقات بينه وبين السلطان غير مستقرة ، وكان الجيش الذى وجده فى مصر — إن صح أن يسمى جيشاً — خليطاً عجيباً من شرازم مملوكية ، وفرق ألبانية ، وشركسية ، إلخ . . . إلخ ، وكانت له أطماع سياسية تتجه إلى إحياء العالم العثمانى ، وكان يرى أن هذا الاحياء لايمكن أن يتم إلا إذا اتخذ لنفسه جيشاً وأسطولا عظيمين قويين ينهج فى تكوينهما نهج دول اوربا فى تكوين جيوشها وأساطيلها .

ورأى محمد على بعد هذا أن السياسة الاقتصادية فى مصر سياسة خربة يعوزها الاصلاح الشامل فى شتى نواحيها ؛ وكان مذهبه فى الاصلاح — مصيباً فى ذلك أم مخطئاً — أن تضع الحكومة يدها على فروع الانتاج الاقتصادى المختلفة ، من زراعة وتجارة وصناعة ، لتتمكن من إدخال الاصلاح الذى تريد.

وكان محمد على أخيراً فى حاجة إلى موظفين إداريين حازمين يفهمون عنه رغبتـــه فى الإصلاح ، ويقدرون حالة البلد ، وحاجتها ، ويلمون إلماماً تاماً بنواحى الاصلاح الغربى المراد اقتباسه .

وكانت مصر خلواً من هذا الصنف من الرجال، فاتجه محمد على أول الأمر إلى استخدام الأجانب ، ولكنه كان يدرك منذ اللحظة الأولى « أن الاكثار من الأجانب فى خدمة الحكومة ليس من الصواب فى شىء ، فكثير منهم — على كفايتهم فى النظم الحربية والاقتصادية كما عرفتها بلادهم فى ذلك الوقت — يجهلون أغراض الحكومة ، وقد يعرقلون أعمالها ، عن قصد أو غير قصد ، وقد يجهلون أيضاً ماتحتاجه بلاد ناشئة كمصر من تلك النظم الحربية والاقتصادية ، وقد يرجع هذا إلى جهلهم بلغة البلاد ، وعادات أهلها ، وطباعهم ؛ وكان محمد على لايثق فى كثير منهم ، ويرى أنهم إنما يعملون لمصلحتهم الذاتية قبل أن يعملوا لمصلحة الدولة التى تنفق عليهم ، وأنهم يروج بعضهم لبعض .

هذا إلى النفقات الطائلة التى تنفق عليهم ، فهم يتقاضون مرتبات باهظة ، وكثير منهم يجهلون اللغة العربية ، فيعين لهم مترجمون ليكونوا عوناً لهم فى عملهم . وفى الصلة بينهم وبين الحكومة »[٣] .

هذه هى الأسباب التى كانت تعدل بمحمد على عن الاعتماد على الأجانب أو الإكثار منهم فى وظائف الحكومة ، وتدفعه إلى التفكير الجدى السريع فى إيجاد حل للإقلال منهم ، ثم لإحلال المصريين محلهم ، ويضاف إلى الأسباب السابقة ما كان يمتاز به كثيرون من هؤلاء من جهل وادعاء واستغلال ، يؤيد

---

(١) رفاعة ، مناهج الألباب ، ص ٣٧٢ .

(٢) رفاعة ، فى مقدمته لبداية القدماء وهداية الحكماء ، ص ٤ .

(٣) عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٣١ — ٣٢ .

دعرانا هذه مايقوله « ادوارجوان » عن الأطباء المرافقين للحملة المصرية على السودان ، قال: «كان يوجد لفيف من أفاق اليونان والطليان يرافقون الجيش فى تنقلاته من مكان إلى مكان منتحلين العلم بالطب ، والحقيقة أنهم كانوا لايدرون من بسائطه شيئاً ، وإنما كانوا من النصابين البارعين فى الشعوذة ، ولقد كان ستة من أولئك الأطباء المزعومين فى مقدمة الذين لقوا حتفهم بتلك الأمراض المهلكة ، فكان موتهم بها دليلا على عجزهم وجهلهم ، وشعوذتهم»[1] ، وذكر أيضاً « مسيوهامون » ناظر مدرسة الطب البيطرى فى مصر فى عهد محمد على عند كلامه عن الأطباء والصيادلة الأجانب الذين ألحقوا بالادارة الصحية أول انشائها ، أن ثلثيهم كانوا لايحملون دبلومات أو مؤهلات علمية طبية بل إن منهم من كان ممرضا أو مدير مكتب تلغرافى أو صانع أحذية أو تدلا فى مقهى بالقاهرة ، ثم قال : « إن أى أجنبى كان ينزل بأرض مصر وليس له مهنة يمتهنها كان يعين صيدلياً أو طبيباً »[2] .

أدرك محمد على إذاً كل هذه الأسباب ، وكانت له بصيرة مستشفة ، وعين نفاذة ، وبدأ يفكر كما قلنا فى الوسائل التى تمكنه سريعا من الاستغناء عن هؤلاء الأجانب — أو على الأقل — عن المدعين منهم ، ثم إحلال المصريين محلهم ؛ وقد اتبع لتنفيذ هذا الرأى سبلا كثيرة :

١ — رأى أولا أن علوم الغرب ، وحكمته ، وخططه ، ونظمه ، قد سطرت جلها أوكلها فى كتبه التى وضعها علماؤه ، ومؤلفوه ، فكانت خطته الأولى أن يمهد السبل لترجمة كثير من هذه الكتب إلى العربية أو التركية ، ليسهل على أبناء البلاد الاطلاع عليها ، والإفادة منها ؛ وقد عهد فعلا لكثير من الأجانب فى مصر — شرقيين وغربيين — بترجمة بعض الكتب ، غير أنهم كانوا يتلكأون ، أو يهملون فى عملهم حتى « ليتم أحدهم عمل ستة أشهر فى خمس سنوات »[3] ؛ ومع هذا فقد ترجمت كتب كثيرة فى مختلف الفنون ، ولكن هل يستطيع هذا النفر من المترجمين أن يحولوا ماء البحر بكوب ؟ ! كلا ولو جاء لهم محمد على بأضعاف أضعافهم عونا ومددا ، ولهذا أدرك ما يشين هذه الطريقة من بطء ، وما قد يشوبها من أخطاء ترجع إلى اختيار الكتب أو المترجمين ، أو كفاية هؤلاء المترجمين ، ومبلغ معرفتهم بالعلوم التى يترجمون فيها ، أو باللغات التى ينقلون عنها وإليها .

٢ — راح محمد على بعد ذلك يتلمس طريقة أخرى فرأى أن ينقل نفرا من أهل البلد إلى أوروبا — موطن هذه العلوم والنظم — ليدرسوا هذا الذى يريد نقله هناك ، وبلغة القوم ، حتى إذا عادوا لمصر

---

(١) ادوار جوان ، مصر فى القرن التاسع عشر ، ترجمة محمد مسعود ، ص ٦٢١ — ٦٢٢ .

(٢) Hamont, l'Egypte sous Méhémet-Ali, t. II, pp. 108-109.

(٣) عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٣٣) نقلا عن وثائق عابدين)

كانوا عدتها فى المستقبل ، وحلوا محل الأجانب فى الوظائف المختلفة ، وفى تعليم مادرسوا لأبناء أمتهم ، وفى ترجمة الكتب الغربية ؛ ولهذا أرسل محمد على البعوث إلى أروبا الواحدة بعد الأخرى ، وعاد الكثيرون من أعضائها وقد أفادوا الفائدة الكبرى ، وحققوا أغراض محمد على ، وحلوا العبء عن الأجانب ، وأدوا واجبهم بإخلاص وأمانة ، وكان محمد على مع هذا لايوليهم — بعد عودتهم — الأعمال المختلفة إلا إذا استوثق من مهارتهم ، وكان مقياسه فى ذلك أن يقوم كل منهم بترجمة كتاب فى الفن الذى اختص فيه ، أما الذين درسوا الصناعة منهم ، فكان يجربهم فيما درسوه ، حتى إذا أظهروا مهارة وكفاية استغنى عن خدمات الأجانب ، وأحل محلهم أهل البلاد فى وظائفهم »[1] ، لأنه كان يرى فى صرف الأجانب عن المنشآت الجديدة ، وإحلال المصريين محلهم ، صيانة لأموال الحكومة وخزائها »[2]، وكان يفرح الفرح كله كلما سمع عن نبوغ بعض الضباط المصريين وبعد ذلك ، فألا حسنا للمستقبل ، إذ يعنى الحكومة من استخدام الأجانب »[3] .

٣ — كان لهذه الطريقة فائدتها وجدواها ، فقد عاد الكثيرون من أعضاء البعثات ، وتولوا الكثير من الأعمال والوظائف ، وترجموا الكثير من الكتب ، ولكن جيوش محمد على وأساطيله تحتاج لمئات الضباط ، والمصانع المتعددة تحتاج لآلاف العمال ، والإصلاح الزراعى ، ومنشآت الرى والهندسة تحتاج لعشرات الخبيرين بهذه الفنون والعلوم الجديدة . . ، والمدارس تحتاج لمئات المدرسين المختصين فى مختلف العلوم . . ، والإصلاح الطبى يحتاج لجيش كبير من الأطباء . . . . وهكذا . . وهكذا . . ، فهل يستطيع محمد على ، أو هل تمكنه ميزانية الدولة أن يبعث هذه الآلاف من المصريين ليتلقوا العلم فى أوروبا . . ؟!

وجد محمد على أن هذه أيضا طريقة غير عملية ، أو — على الأقل — غير سريعة الإنتاج ، لأنه لو اكتفى بها لاحتاج إلى سنوات وسنوات ، وهو حريص على أن يشمل إصلاحه كل ناحية من نواحى الحياة المصرية ، وفى أسرع وقت ممكن ، لهذا لجأ إلى تجربة رابعة ذات شعبتين :

٤ — (ا) فقد عهد إلى الأجانب أن يقوموا — إلى جانب أعمالهم — بتعليم بعض المصريين علومهم وفنونهم حتى إذا أتم هؤلاء تعليمهم خلفوا أساتذتهم فى مراكزهم ، فالضباط الأجانب ينظمون فرق الجيش ، ويعلمون الضباط والجند المصريين أو الأتراك ، والأطباء الأجانب يعملون فى المستشفيات ، ويعلمون التلاميذ ليكونوا أطباء ، ورجال الصناعة الأجانب يعملون فى المصانع ، ويعلمون فنهم للصناع مريين ».

---

(١) و (٢) و (٣) عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ص ٣٣ و ٣٤ (عن وثائق عابدين) .

(ب) ثم رأى محمد على أخيراً أن ينشىء المدارس المختلفة لتعليم أبناء البلاد تعليما رتيبا منظما ، فأنشأ مدارس الطب والهندسة والزراعة والحربيـــة ومدرسة الألسن ، ثم رأى أن لا بد من وجود مدارس أخرى لإعداد الملتحقين بهذه المدارس « الخصوصية » ، ففتح مدارس « المبتديان » ، والمدارس « التجهيزية » .

بهذه الوسائل جميعا حاول محمد على أن ينقل الغرب إلى مصر ليحقق مثله العليا فى الإصلاح ، ولكنه لم يحاول البتة أن ينقل مصر إلى الغرب بل احتفظ لها بروحهـــا وتقاليدها ، بل لقد حاول فى كثير من الأحيان أن يمزج بين الخير فى العالمين — الشرق والغرب — فأقام النهضة المصرية الحديثة على أسس متينة صحيحة ، ووجّهها — منذ عصره حتى الآن — الوجهة الطيبة التى أفادت منهـا ، والتى لا نزال نعمل للإفادة منهـا .

ختم محمد على باشا

(ب) إلى أى الدول الأوروبية اتجه محمد على عند النقل

الدول الأوروبية ذات الصدارة فى مطالع العصر الحديث ، انجلترا ، علاقاتها مع مصر منذ العصور الوسطى ، لم ابتعد محمد على عنها وهن فرنسا أولا ؟ ، العلاقات بين مصر وإيطاليا ، اتجاه محمد على إليها أولا ، أسباب هذا الاتجاه ، استعانته بالإيطاليين فى مدارسه الأولى ، وفى جيشه ؛ البعثات الأولى ترسل الى إيطاليا ، الكتب الأولى تترجم عن الإيطالية ، معظم الأطباء والصيادلة من الإيطاليين ؛ ابتعاده عن إيطاليا واتجاهه إلى فرنسا ، الأسباب ، أثر هذا فى الثقافة المصرية فى القرن ١٩ ، استعانة محمد على برجال من دول أوروبا المختلفة

استعان محمد على — كما ذكرنا — بالأجانب أول الأمر ، وهنا نتساءل : بأى الأجانب استعان ؟ لما لذلك من أثر واضح سيصبغ ثقافة مصر بصبغة خاصة طوال القرن التاسع عشر .

كانت دول أوروبا صاحبة الصدارة فى العصور الوسطى المتأخرة ومطلع العصر الحديث هى : انجلترا وفرنسا ، وجمهوريات ايطاليا .

أما انجلترا فلم تفكر يوماً — حتى أواخر القرن الثامن عشر — فى أن تكون لها بمصر علاقة ما ، وخاصة من الناحية السياسية ، وذلك إذا استثنينا الدور الذى لعبه الملك « ريتشـــارد » (قلب الأسد) فى الحروب الصليبية ، وما كان بينه وبين سلطان مصر وقتذاك صلاح الدين الأيوبى وأخيه الملك العادل أبى بكر من علاقات[1] صداقة كانت توحى بها روح العصر والمثل العليا لنظام الفروسية السائد فى تلك الأيام ، وما كان يتمتع به كل من صلاح الدين و « ريكاردوس » من صفات البطولة الصادقة .

وبانتهاء تلك الحملة الصليبية انقطعت العلاقات بين مصر وانجلترا ، حتى إذا كان النصف الثانى من القرن الثامن عشر سمعنا عن مساع كثيرة يبذلها الانجليز فى مصر للعودة إلى استعمال الطريق البرى القديم عبر مصر والبحر الأحمر للوصول إلى الهند[2] ، لما يمتاز به هذا الطريق من قصر وسرعة تتناسب ومبشرات الرغبة فى هذه السرعة التى ستكون أهم مميزات القرن التاسع عشر وخاصة بعد الانقلاب الصناعى .

وأحست فرنسا فى نفس الوقت أهمية مصر فى هذه الناحية ، وبدأت المنافسات التحتية مع مولد القرن التاسع عشر بين هاتين الدولتين لاحتلال مصر ، وظهرت أروع صور هذه المنافسة فى النضال الذى انتهى بإخراج الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠١ ؛ وتلكأت الجنود الانجليزية فى مصر بعد خروج الفرنسيين

---

(١) فصلت هذه العلاقات فى بحث لى لم ينشر بعد عنوانه « الصلات الدينية بين الإسلام والمسيحية فى العصور الوسطى » .

(٢) أنظر فيما يتعلق بمحاولات انجلترا فى القرن الثامن عشر : Hoskins, The British Routes to India. ؛ وأنظر أيضا : مقالاتى عن « مصر وطريق الهند فى القرن الثامن عشر » الثقافة ، سنة ١٩٤٠ و ١٩٤١ .

حتى اضطرت إلى الجلاء بعد قليل ، ثم عاودت محاولتها مرة أخرى سنة ١٨٠٧ فنيت هذه المحاولة بالفشل.

فهل نستطيع أن نقول إن محمد على يتجه فى محاولاته للإصلاح إلى انجلترا ، أو أن يستعين بالانجليز ، ولم يكن فى مصر منهم جاليات كبيرة !!

فإذا تركنا انجلترا إلى فرنسا لا حظنا أن محمد على قد اشترك فى المعارك التى انتهت بإخراجهم من مصر ، وقد خلصت له مصر بعد عهدهم مباشرة ، فهو يحس تماما ما تركوا فى مصر من آثار ، ولكن لعله كان لا يزال يتخوف منهم ، ثم إن عدد الجالية الفرنسية فى مصر قد نقص نقصا كبيرا بعد خروج الحملة ، فلم يكن من الطبيعى أيضا أن يتجه محمد على أول ما يتجه إلى فرنسا ، وإن كان سيتجه إليها بعد قليل لعوامل أخرى .

انحرف محمد على عن الاتجاه إلى هاتين الدولتين ، والاستعانة برجالهما أول الأمر — رغم ما كان لهما من زعامة على دول الغرب وقتذاك — واتجه أول ما اتجه إلى ايطاليا والايطاليين ، ولذلك أسباب :

فقد ظلت العلاقات التجارية بين مصر وجمهوريات ايطاليا متينة وثيقة طول العصور الوسطى ، وكان للإيطاليين حتى أوائل عهد محمد على جاليات كثيرة فى ثغور مصر والشام وموانيهما ، كما كانت اللغة الايطالية هى اللغة الأجنبية الأكثر شيوعا[١] وتداولا ، بل لقد كانت لغة المخاطبات الرسمية حتى بين القنصليات غير الايطالية ، وكان هؤلاء الايطاليون يعرفون العربية ، كما كان عامة الأهالى فى الثغور المصرية ، وخاصة الاسكندرية ، يتكلمون الايطالية ، يقول رفاعة عند كلامه عن الاسكندرية فى « رحلته إلى باريس » إن أغلب السوقة بهذه المدينة « يتكلم ببعض شىء من اللغة الطليانية »[٢] .

فلما انتهت مذبحة القلعة ، وأصبح أولاد المماليك وغلمانهم ملكا لمحمد على ، بدأ الخطوة الأولى لإصلاح الجيش ، فأنشأ لهؤلاء الغلمان مدرسة فى القلعة على نمط مدارس المماليك القديمة ، غير أنه كان يدرس فيها إلى جانب الفنون الحربية اللغات العربية والتركية والايطالية ؛ فاللغة الايطالية هى أول لغة أوروبية قرر تدريسها فى مدارس محمد على .

وسنجد فيما بعد أيضا أن اللغة الايطالية ستدرس فى مدرستى بولاق وقصر العينى ثم فى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، وفى بعض المدارس الحربية فى سنيها الأولى .

وعند ما فكر محمد على فى إرسال البعوث إلى أوروبا ، كانت أولى بعثاته فى سنة ١٨٠٩ ، وثانيتها فى سنة ١٨١٣ إلى مدن ايطاليا المختلفة : ليفورن ، وميلانو ، وفلورنسا ، وروما . وذلك لدراسة فن سبك الحروف ، والطباعة ، وبعض الفنون العسكرية وبناء السفن ، ونظم الحكم .

---

(١) Artin Pacha. l'Instruction Publique en Egypte, p. 69.

(٢) تخليص الابريز ، ص ٢٦ .

« ومن إيطاليا استدعى محمد على المعلمين للمدارس ، والضباط المدربين للجيش ، واشترى آلات الطباعة ، والكتب التى دفعها إلى المترجمين لينقلوها إلى التركية أو العربية » [١]

وقد ذكر كلوت بك فى تقريره عن الطب فى مصر الذى قدمه فى ديسمبر سنة ١٨٣٧ للدكتور « بورنج Bowring » مبعوث الحكومة الانجليزية فى مصر ، أنه بدأ عمله فى مصر والإدارة الصحية يشرف عليها — فى معظمها — الإيطاليون ، ثم ذكر فى إحصائية صغيرة أن مائة وخمسة من الأطباء والصيادلة فى الجيش والمستشفيات العسكرية كانوا من الإيطاليين ، واثنين وثلاثين من الفرنسيين ، وستة من الانجليز ، وخمسة من الألمان ، وأربعة من البولنديين ، واثنين من الأسبان [٢] .

وعندما استقدم محمد على بعثة حربية من فرنسا للاشتراك فى تنظيم جيشه كتب الجنرال « بوايه Boyer » رئيس هذه البعثة إلى صديقه « المسيو جومار Une: Jomard » عضو المجمع العلمى الفرنسى ، والمشرف على بعثات محمد على إلى فرنسا فيما بعد — يقول : « وجدت أن إدارة الشئون كلها فى مصر فى أيدى الإيطاليين ، واللغة الفرنسية فى المحل الثانى ، ولا يعلمون فى المدارس الحربية سوى اللغة الإيطالية ، ولا يترجمون سوى الكتب البسيطة التى وضعها مؤلفون من ذلك الشعب ، ومدرسو الرياضيات واللغات ، والعلوم ، والفنون ، وغيرها ، كلهم إيطاليون ؛ وفى كل عام يرحل إلى أوروبا ثلاثون أو أربعون شابا ليتعلموا علومها وفنونها ؛ وإلى « بيزة » يتجهون حتى فى دراسة الفنون الحربية ؛ ويظهر الوالى دهشته من هذا التفوق الإيطالى ، وإنهم ليبثون فى ذهنه المخاوف من ناحية الفرنسيين (الخادعين) ، أما من ناحية الإيطاليين فلا يجب أن يخشى شيئاً .. [٣] »

ومن الفقرة الأخيرة من هذا الاقتباس نعلم مبلغ المرارة التى كان يحسها الفرنسيون من تفوق الإيطاليين ولغتهم فى حكومة وإدارة ومدارس وجيش محمد على ؛ ولهذا نلاحظ أن الفرنسيين سيبذلون كل الجهود للقضاء على هذا النفوذ لكى تكون لهم وللغتهم الصدارة بين الأجانب واللغات الأجنبية فى مصر ، وقد ساعدهم على ذلك أن الطوائف الأولى من الإيطاليين لم تكن من العنصر الممتاز ، بل كان معظمهم يشبهون ذلك اللفيف من الأطباء الذين وصفهم « ادوار جوان » بأنهم كانوا : « من أفاق اليونان والطليان » ، وذلك فى الوقت الذى ترك فيه الفرنسيون القلائل الذين التحقوا بخدمة محمد على ، وخاصة « الكولونيل سيف » و « كلوت بك » أطيب الأثر وأجمله .

---

(١) عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٩٠ .

(٢) Bowring, Report on Egypt and Candia. p. 139.

(٣) Douin, une Mission Militaire de Meh. Ali. p. 40. (de Boyer à jormard, 20 Mai., 1825.) والترجمة من ألفاظ الدكتور عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٩٠ — ٩١ .

وهناك عامل شخصي قد يكون له بعض الفضل في التمهيد لغلبة الفرنسيين على الإيطاليين ، وذلك أن محمد علي كان قد اتصل في شبابه بتاجر فرنسي اسمه « المسيو ليون »[١] ، وقد أخلص له هذا الرجل الود والإخاء ، وأفاده كثيراً بخبرته في شئون التجارة ؛ كذلك قد يرجع بعض الفضل إلى أن فرنسا كانت تسعى — برجالها وعلمائها وضباطها — إلى مصر وإلى محمد علي سعياً ، فقد كانت تعتبره منفذاً ومتسعاً لما بدأه علماء الحملة من أبحاث ، ولما بدأته الحملة نفسها من إصلاحات .

وأخيراً لقد كان لمركز فرنسا الدولي الممتاز حينذاك - كدولة من دول البحر الأبيض المتوسط - أثر كبير في إشاحة محمد علي وجهه عن إيطاليا والايطاليين ، واتجاهه في سياسته الاصلاحية نحو فرنسا والفرنسيين .

نجحت فرنسا في حلبة هذه المنافسة ، وألغيت اللغة الإيطالية شيئاً فشيئاً من المدارس المصرية ، واستغنى عن الضباط والمدرسين الايطاليين واستعيض عنهم بضباط ومدرسين فرنسيين ، وعدل عن ترجمة الكتب الإيطالية ، وألغيت البعوث الايطالية فغدت ترسل — في معظمها — إلى فرنسا ؛ وفي كلمة واحدة لقد تحولت مصر عن النقل عن الثقافة الإيطالية إلى النقل عن الثقافة الفرنسية ، وسيكون لهذا أثره الملحوظ كما ذكرنا ، فستظل مصر طول القرن التاسع عشر مصطبغة بالصبغة الفرنسية في شتى نواحيها التفكيرية ؛ غير أنه لزام علينا أن نشير في ختام هذا الموضـــوع إلى أن محمد علي لم يكن أسيراً لحبه لفرنسا وللثقافة الفرنسية وحدها ، بل كان يحب دائماً أن يستعين برجال كل دولة امتازت في ناحية من نواحي العلم والعرفان ، فكانت من بعثاته بعثات أرسلت للنمسا وانجلترا ، كما كان يدير بعض مدارسه ويعلم فيها أفراد من الاسبانيين والانجليز وغيرهم .

---

(١) لم ينس محمد علي جميل هذا الفرنسي ، وخاصة عندما وصل إلى فمة مجده ، فقد بحث عنه حتى علم أنه يقيم في « مرسيليا » فأرسل يستدعيه إلى مصر ، ولكن الرجل توفي وهو بعد العدة للسفر ، فأرسل محمد علي عشرة آلاف فرنك هدية إلى أخت ! أنظر : الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، ج ٢ ، ص ٣١٢ — ٣١٣ .